﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: 100 - 101]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعد أنْ ذكرَ العَبدةُ الغاوون قولَهم الذي اعترفوا فيه بانهماكهم في الضَّلال المبين، وذكروا إضلالَ المجرمين لهم؛ أتبعوا القولَ بتحسُّرهم وتأسُّفهم وتوجُّعهم على انتفاءِ الشُّفعاءِ والأصدقاء لهم من الملائكةِ والأنبياء عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، كما للمؤمنين، أو بتحسُّرهم على وقوعهم في المهلكةِ التي لا يخلِّصهم منها شافعٌ ولا صديقٌ، أو على عداوةِ من كانوا يعدّونَهم شفعاءَ وأصدقاءَ.

بعد اعتراف العَبدة بالضَّلال وبيانهم سببَهُ أعقبوا بالتَّحسُّر على انتفاءِ الشَّفيع والصَّديق

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَٰفِعِينَ﴾: (شفع) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مُقارَنَةِ الشَّيْئَيْنِ، وهو مِن الشَّفْعِ[1]، وهو: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِهِ[2]، ومنه الشّافعُ: الطّالبُ لغيره، وتقول: استشفعتُ بفلانٍ، فتشفَّع لي إليه، فشَفَّعَهُ فيَّ، والاسم: الشَّفاعةُ، والشّافع أيضًا: المُعين، يُقالُ: فلانٌ يشفع لي بالعداوة، أي: يُعينُ عليَّ، ويضادُّني[3]، وتأتي الشَّفاعة بمعنى الزِّيادَةِ، يُقال: شَفَعَ شَفاعةً حَسَنَةً، أي: زادَ إلى عَملِهِ عَمَلًا[4]، والمقصود بالشافعِ في الآية: الَّذي يَكونُ واسِطةَ جَلْبِ نَفْعٍ لغَيرِهِ أو دَفْعِ ضُرٍّ عنه[5].

2) ﴿صَدِيقٍ﴾: (صدق) أَصْلُ الكَلِمَةِ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، ومنه: الصِّدْقُ، سُمِّيَ به؛ لِقوَّتِه في نَفْسِه، وضِدُّه: التَّكذيبُ[6]، والصَّدقُ: الكاملُ من كلِّ شيءٍ، والصِّدّيق من يُصَدِّقُ بكلِّ أمرِ اللّهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(2) الرّاغب، المفردات: (شفع).
(3) الخليل، العين: (شفع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (شفع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

تعالى والنبيِّ ﷺ، لا يتخالجه شكٌّ في شيءٍ[1]، والصَّديقُ: الخَليلُ، ومَصْدَرُهُ الصَّداقَةُ، وسُمّيَ بذلك؛ لأنَّهُ يَصْدُقُهُ النَّصيحةَ والوُدَّ، ويوضَعُ الصَّديقُ مَوْضِعَ الأصدقاء[2]، والمرادُ بالصَّديقِ في الآيةِ: فعيلٌ بِمَعْنَى فاعِلٍ، وهو الصّادِقُ في المَوَدَّةِ[3].

3) ﴿حَمِيمٍ﴾: أصلُ (حمم) يدلُّ على الدُّنوِّ والحُضورِ[4]، والحَميمُ: القَرابةُ، يُقالُ: مُحِمٌّ مُقْرِبٌ، والحامَّةُ خاصَّةُ الرَّجل من أَهلِه ووَلَدِه وذي قَرابَتِه، يُقالُ: هَؤُلاءِ حامَّتُهُ، أَي: أَقرباؤُهُ[5]، وحَميمُك: قَريبُك الَّذي تهتَمُّ لأَمره، وهو الَّذي يَوَدُّكَ، وتَوَدُّه، وهوَ القَريبُ المُشْفِقُ الَّذي يحتَدُّ حِمايةً لِذَويه[6]، والحَميمُ في الآية: هو القريبُ الذي تَوَدُّه، ويودُّك، والمعنى: (ما لنا من ذي قرابة يُهِمُّهُ أمرنا)[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أكَّدَ الكافرون من قومِ إبراهيمَ عليه السلام ندمَهم على ما فرَّطوا، وحسرتهم على ما صنعوا، فقالوا: فليسَ لنا اليومَ شفيعٌ يشفعُ لنا ممّا نحن فيه من ضيقٍ، أو ينقذُنا من هَلَكَةٍ، ولا صديقٌ مُشفِقٌ صادِقٌ في وُدِّه[8].

إظهارُ الكافرين اللَّهفةَ والحسرةَ على فقْدِ الشَّفيعِ والصَّديقِ النّافعِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها في: ﴿فَمَا لَنَا﴾:

جاءتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ عاطفةً، تفيدُ التَّرتيبَ، فقد رتَّبوا بالفاءِ انتفاءَ الشّافعين على جملة: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ

إضلالُ المجرمينَ للعَبدةِ حرمهم حرمانًا مؤكّدًا شفاعةَ الشّافعينَ والصّديقِ الحميم

(1) الخليل، العين: (صدق).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (صدق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 302.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حمم).
(6) الخليل، العين، والجوهريّ، الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (حمم).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 343.
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 116، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 150، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 79.

﴿إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ حيث أطمعوهم بشفاعةِ الأصنام لهم عند اللهِ، مثل المشركين من العرب الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]، فتبيَّن لهم أنَّه لا شفاعة لها، وهذا الخبرُ مستعملٌ في التَّحسُّر والتَّوجُّع، كما أنَّها تفيدُ السَّببيَّة، أي: إنَّ إضلالَ المجرمين العريقين في صفةِ الإجرام لهم تسبَّبَ عنه أنَّه ما لهم اليوم من شافعين يكونون سببًا لإدخالهم الجنَّة؛ لأنَّهم صرفوا ما كان يجب عليهم لذي الأمرِ إلى مَن لا أمرَ له[1].

ويحتملُ أنْ تكون الفاءُ للتَّوكيد[2]، أي: لتوكيدِ نفي وجودِ شافعين وأصدقاء ينفعونهم، ويرى أبو زهرة أنَّها فصيحةٌ؛ لأنَّها تفصحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ، وتقدير القول: إذا كان الذين صاحبونا، وشجَّعونا مجرمين؛ فما لنا من شفيعٍ يشفع لنا، ويضمُّ صوته إلى صوتنا، ولا صديقٍ حميمٍ يتألَّم معنا، ويرفعُ عنا مقتَ ربِّنا، أو يشاركنا، فينقصُ منا ما يصيبنا من مقتٍ وسوءِ عاقبةٍ[3].

معنى (ما)، وعلَّة التعبير بها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ نافيةٌ، نفتْ وجودَ شافعين للمشركين، كما للمؤمنينَ شافعين من الملائكةِ والأنبياء، أي: إنَّ الآيةَ تُثبتُ بمفهوم المخالفة أنَّ المؤمنينَ لهم شفاعةٌ، كأنَّهم لَمّا رأَوا أنَّ المؤمنينَ يَشفعونَ بعضهم لبعضٍ، قالوا: نحنُ ما لنا من شافِعين، ولا صديقٍ حَميمٍ[4]، أو نفتْ شفاعةَ الأصنام الذين كانوا يعدّونهم شفعاءَ، بكون عدمِ شفاعةِ هذه الأصنام كنايةً عن عداوتِها، أو نفتْ شفاعةَ أيِّ شافعٍ يخلِّصهم من المهلكةِ التي وقعوا

نَفْيهم المؤكَّدُ للشّافعين دليلٌ على بلوغهم الغايةَ في اليأس والتَّحسُّر والتَّندُّم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 59.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري: 19/ 157.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5374.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّعراء، ص: 173.

فيها، بكون المراد من عدمها عدمُ أثرها[1]، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمال (ما) دون غيرها من أدوات النَّفي، مثل (ليس) أو (لم) أو (لا)؛ لقوَّةِ النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكدُ في النَّفي، فهي تقعُ جوابًا للقسم، وكثيرًا منفيُّها ما يقترن بـ (من) الاستغراقيَّة المؤكِّدة كما هو في هذه الآية، بخلاف (لم) و(ليس) و(لا)، ومن ثَمَّ استعمالُهم لهذه الأداة يدلُّ على بلوغهم الغايةَ في اليأس من شفاعةِ أيِّ شفيعٍ، وبلوغِ الغايةِ في التَّحسُّر والنَّدم.

نكتةُ التَّقديمِ في قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾:

انتفاءُ الشّافعين والصديقِ الحميمِ مختصٌّ ومنحصرٌ بالمشركين يوم القيامة

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الخبر ﴿لَنَا﴾، في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ لإفادةِ الحصر والاختصاص، أي: انتفاءُ الشّافعين والصديقِ الحميم مختصٌّ ومنحصرٌ يومَ القيامة بالمشركين، وفي هذا دليلٌ على أنَّ اللّهَ ﷻ يُشَفِّعُ غيرَ رسولِ الله ﷺ، قَومًا مِن المؤمنين بعضَهم في بعضٍ، وأنَّ الصَّديقَ يَشفَعُ لصديقِه[2].

معنى ﴿مِن﴾، وسرُّ ذكرها:

زيادةُ المشركين في تعميمِ انتفاءِ الشُّفعاء وتأكيده دلالةٌ على شدَّةِ تحسُّرهم وتأسُّفهم

تحتمل ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ أنْ تكون بيانيَّةً؛ لبيانِ جنسِ مَن ينفي المشركون إمكانيَّةَ الاستفادة منهم في دفعِ العذاب عنهم يوم القيامة، وهم الشُّفعاء، والمعنى: (فما لنا مِن شُفَعاءَ يَشفَعونَ لنا عندَ اللّهِ؛ ليَعفوَ عنّا، ويُخرِجَنا مِنَ النّار)، ويحتمل أنْ تكون ﴿مِن﴾ للتَّوكيد، أي: لتأكيدهم نفي وجودِ أيِّ شافعين يشفعون لهم[3]، قال البقاعيُّ: "وزادوا في تعميمِ النَّفي بزيادة الجارّ"[4]، أي: "فليس لنا شافعٌ، فيشفع لنا عند اللّه"[5]،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 270، والقصاب، النّكت الدالة على البيان: 3/ 530.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 59.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 368.

والزيادةُ في تعميم النَّفي وتأكيده تدلُّ على شدَّة التَّحسُّر والتَّأسُّف الذي هم فيه.

عِلَّةُ التَّعبيرِ في قولِهِ: ﴿شَٰفِعِينَ﴾:

انتفاعُ المؤمنين بالشَّفاعة لإيمانهم جَعل المشركين آيسين من الشَّفاعة لإشراكهم

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بوصف الشَّفاعة في قوله تعالى حكاية عن حالِ المشركين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾؛ مناسبةً للمقام؛ إذ إنَّ المشركين لمّا رأوا المؤمنين، ينتفعونَ بالشَّفاعة المتوقِّفة على إذنِ اللّه من الأنبياء والملائكة والأصدقاء، وأيقنوا بحرمانهم من الشَّفاعة والخلَّة؛ لإشراكهم باللّهِ سبحانه، قالوا: "فما لنا من شافعين كما للمؤمنين من الملائكةِ والأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ"[1]؛ زيادةً في تأسُّفهم وحسرتهم وتوجُّعهم من حرمانهم، ممّا كان عندهم مِنْ أملٍ بعد أنْ كُبكبوا في النّار، ولم ينفعهم مالٌ أو جاهٌ أو أتباعٌ أو غيرُ ذلك.

سرُّ اصطفاءِ صيغةِ الجمعِ ﴿شَٰفِعِينَ﴾:

لا أحدَ يشفعُ للكافرين رغمَ كثرةِ الشّافعين

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ صيغَةَ الجَمع في قوله: ﴿شَٰفِعِينَ﴾، ولم يقل: (فما لنا من شافع)؛ للإشارة إلى زيادةِ تحسُّرهم، بانتفاء العدد الكبيرِ من الذين كانوا يظنّونهم شفعاءَ من الأصنام، التي كانوا يعبدونها؛ لتقرِّبهم إلى اللّه زلفًى، ولتشفعَ لهم، وغير ذلك من الشُّفعاء ممَّن كانوا يُضلّونهم، أو أيُّ شافعٍ من شأنه أنْ يشفعَ، أي: الجمعُ يدلُّ على كثرة الشّافعين، ولكن لا يوجد من يشفع لهم برغم كثرةِ الشُّفعاء.

دلالةُ تنكيرِ قوله: ﴿شَٰفِعِينَ﴾:

لا شفاعةَ للكافرين من أيِّ أحدٍ في اليومِ المهول

تنكيرُ لفْظِ ﴿شَٰفِعِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾؛ يفيدُ عمومَ نَفْي جِنْسِ الشّافع؛ لوقوعِهِ نَكِرةً في سياقِ النَّفي[2]، فلا أحدَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.

يشفعُ للكافرين والمشركين في ذلك اليوم، كما يدلُّ التَّنكيرُ على كثرةِ الشّافعين، ولكن رغمَ كثرتهم، فإنَّ نفعهم منفيٌّ، وهذا يشيرُ إلى أنَّ "الأمرَ قد بلغَ من الهولِ ما لا يستطيعُ أحدٌ أنْ ينفعَ فيه أدنى نفعٍ"[1].

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾:

في العطفِ تَتْميمٌ أفادَ المبالغةَ في نفي أيِّ شفاعةٍ للمشركين يومَ القيامة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ عاطفةٌ، عطفتْ هذه الآيةَ على قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾، وقد جاء هذا العطفُ تَتْميمًا[2] أثاره ما يلقونه من سوءِ المعاملة من كلِّ مَن يَمُرّونَ به، أوْ يتَّصلونَ، ومن الحرمان الذي يعاملهم كُلُّ من يسألونه الرِّفقَ بِهِم، حتّى علموا أنَّ جميعَ الخلقِ يتَبَرَّأُ منهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: 166]، فإنَّ الصَّديقَ هو الَّذي يواسيكَ، أوْ يُسَلّيكَ، أو يَتَوَجَّعُ من أجلك، ويَوْمَئِذٍ حَقَّتْ كَلِمَةُ اللّٰه ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: 67][3]، وقد أفادَ هذا التَّتميمُ المبالغةَ في نفي أيِّ نفعٍ يرجونه يوم القيامة، بما يزيدُ تحسُّرهم.

نكتةُ تكرارِ معنى النَّفي في (لا):

تأكيدُ المشركين لانتفاءِ وجودِ الصَّديق الحميم الذي ينفعُهم، زيادةٌ في التَّحسُّر

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ معنى النَّفي بـ (لا) مع العطف، في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ ولم يقلْ: (فما لنا من شافعين وصديقٍ حميم)؛ لإفادةِ توكيدِ نفي وجودِ الصَّديق الحميم الذي ينفعهم، أي: هو حُكْمٌ قاطعٌ لا استئنافَ له فيما بَعْد، وفي هذا التَّأكيد مزيدٌ من التَّحسُّر.

علَّةُ ذكرِ قولِهِ: ﴿صَدِيقٍ﴾:

لا نفعَ يومَ القيامةِ لصحبةٍ لا تقوم على صدقِ الإيمان

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ صديق، في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 19/ 79.

(2) التتميم: "أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيدُ نكتةً، كالمبالغة"، القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/ 212.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.

﴿حَمِيمٍ﴾ دون غيره من الألفاظ المتقاربة كالصّاحب؛ لكون لفظِ الصَّديق في معناه اللُّغوي أنسبَ لحالهم في الدُّنيا؛ إذ الصَّديقُ من الصداقة، وهي مُشْتَقَّةٌ مِنَ الصِّدْقِ في المَوَدَّةِ[1]، فالصداقةُ: المُخالَّةُ من تماسُكِ القُلوب مَعَ المؤازرة بصلابة، كما في أصل الصِّدق في معناه اللغوي؛ إذ هو صلابةٌ أو قوَّةٌ في باطنِ الشيء مع شدَّةِ تماسكِ جرمه[2]، بخلاف المصاحبة التي قد لا يكون فيها صدقٌ؛ إذ هي تدلُّ على المقارنة والمقاربة والمعاشرة[3]، ولا يُشترط فيها صدقُ المودَّة والمحبَّة، وهكذا كانت علاقاتهم في الدُّنيا قائمةً على المصالح الدنيويَّة الزائلة لا على رباط الإيمان والتَّقوى، فهم وإنِ ادَّعوا الحُبَّ والخلَّة، إلّا أنَّهم في أقربِ امتحانٍ يتخلّون عن بعضهم، كما وصفهم القرآن بقوله: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: 67].

نكتةُ تقديم ﴿شَٰفِعِينَ﴾ على ﴿صَدِيقٍ﴾:

في تقديم نفي المشركين للشّافعين على نفي الصَّديق الحميم ترقٍّ لمزيدِ انحطاطِ حالهم في التأسُّف، حيث نفَوا - أوَّلًا - أنْ يكون لهم من ينفعهم في تخليصِهم من العذاب بشفاعته، ونفوا - ثانيًا - أنْ يكون لهم من يهمُّه أمرهم، ويشفقُ عليهم، ويتوجَّعُ لهم، أو يخلِّصهم[4].

ترقٍّ لمزيدِ انحطاطِ حالِ المشركين في التأسُّف

سرُّ اصطفاءِ الإفرادِ في قوله: ﴿صَدِيقٍ﴾:

لفظُ الصَّديق مصدرٌ يقعُ على الواحدِ والجمعِ، والمرادُ به في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الجمع، أي: نفي جنسِ الصديق؛ لوقوعه في سياقِ النَّفي المؤكَّد بـ ﴿مِن﴾، وقد أتى النَّظم الحكيم به مفردًا بخلاف لفظ ﴿شَٰفِعِينَ﴾ الذي أتى به جمعًا؛ لأنَّهم أرادوا بالشّافعين: الآلهةَ الباطلة، وكانوا يعهدونهم عديدين، فجرى على كلامهم بما

من يصدقُ في إخلاصِ الودادِ والمحبَّة قليلٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صدق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صحب).
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 10/ 260.

هو مرتسمٌ في تصوُّرِهم، أمّا الصَّديقُ؛ فإنَّه مفروضُ جنسِه دون عددِ أفراده؛ إذ لم يعنوا عددًا معيَّنًا، فبقي على أصلِ نفي الجنس[1]، وكذلك فإنَّ العدولَ عن صيغة الجمعِ إلى صيغة الإفرادِ - رغم أنَّ السّياقَ هو سياق جمع - للإشارة إلى كثرةِ الشُّفعاء في العادة، وقلَّة الصَّديق، وهو الصّادقُ في ودادك الذي يهمُّه ما أهمَّكَ[2]، وخاصَّة في ذلك المقام الذي قال عنه الله سبحانه: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: 67]، وليُحقِّق التفاتًا من صيغة الجمع ﴿شَٰفِعِينَ﴾ إلى الإفراد ﴿صَدِيقٍ﴾، يزيدُ به الكلامَ وضوحًا ودفعًا للسّامع إلى التأمُّل والتدبُّر لاكتشاف أثر هذا الالتفات في المعنى، ولأنَّه سبحانه أراد بإفراد ﴿صَدِيقٍ﴾، أنْ يُجرى عليه وصْفُ ﴿حَمِيمٍ﴾، فلو جيءَ بالمَوْصوفِ جَمعًا؛ لاقْتَضى جَمعُ وصْفِه، وجَمعُ ﴿حَمِيمٍ﴾ - وهو أحماء - فيه ثِقَلٌ لا يناسبُ مُنتهى الفصاحة، ولا يَليقُ بصورة الفاصلة مع ما حصل في ذلك من التَّفَنُّنِ الَّذي هو مِن مَقاصِدِ البُلَغاءِ[3].

دلالةُ تنكيرِ قوله: ﴿صَدِيقٍ﴾:

نكَّرَ القرآنُ لفظَ ﴿صَدِيقٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ لإفادةِ العُموم، أي: نَفْي جِنْسِ الصَّديقِ؛ لوقوعِه نَكِرةً في سياقِ النَّفي[4]، أي: نفيُ نفعِ أيِّ صديقٍ له في ذلك اليوم، ويشيرُ التَّنكيرُ كذلك إلى تفخيمِ شأنِ الصَّداقةِ ورفعةِ قدْرها.

الصَّداقةُ شأنُها عظيمٌ، وقد حُرِمها الكافرون يومَ القيامة

علَّةُ وصفِ الصَّديق بـ﴿حَمِيمٍ﴾:

في وصف الصَّديق بالحميم في قول الله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إيضاحٌ لِما في ظاهر لفظ ﴿صَدِيقٍ﴾ من لَبْسٍ؛ إذ تردُ عليه

إذا كان الصَّديقُ القريبُ لا ينفعهم؛ فالبعيدُ من بابٍ أولى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 164.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 322.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.

أسئلة، منها: لماذا خصَّ الصَّديقَ؟ فيوضِّحه في بقيَّة كلامه، بأنَّه الصَّديقُ الموصوفُ بصفةٍ حميم، وهو الصَّديقُ الذي يهمُّه أمرنا، ويهمُّنا أمره[1]، وهو القَريبُ المُشْفِقُ الَّذي يحتَدُّ حِمايةً لِذَويه[2]، وهو الَّذي يَوَدُّكَ وتَوَدُّهُ[3]، إذًا هو أَخَصُّ مِنَ الصَّديقِ[4]، وفي هذا الوصف مبالغةٌ في التَّحسُّر؛ لأنَّه إذا كان الصَّديقُ الحميمُ - أي: القريبُ - لا ينفعهم، فكيف بالصَّديق غيرِ الحميم؟ فهو من بابٍ أولى ألّا ينفعهم.

كما أنَّ الإشكالَ الذي يحلُّه الإيضاحُ من معاني البَديعِ؛ فالنَّفسُ تتشوَّفُ إلى الإيضاح بعد الغموض، بما يدلُّ على أهميَّةِ ما سيأتي من كلامٍ وتنبيهٍ للمخاطَبين على ذلك.

بلاغةُ صيغةِ قوله: ﴿حَمِيمٍ﴾:

﴿حَمِيمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ صيغةُ مبالغةٍ على وزنِ فعيل؛ من حَمَّ (بِفَتْحِ الحاءِ)؛ إذا دنا وقَرُبَ وحضَرَ[5]، وقد عبَّر بها البيانُ القرآنيُّ؛ لإفادة بلوغِ الغايةِ في القربِ والإشفاقِ عليه والاهتمام بأمره، وبالتّالي إفادة الغاية في نفي النَّفع من هذا الصَّديق الحميم، ممّا يجلبُ لأهل النّار اليأسَ والقنوط من أيِّ نفعٍ، وقد زاد التَّعبيرُ بهذه الصّيغةِ الكلامَ بلاغةً، والمعنى قوَّةً وجزالةً ووضوحًا.

لم ينفعِ الكافرين من ظنّوه قد بلغَ الغايةَ في القربِ والإشفاقِ عليهم

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

قولُ اللّهِ تعالى حكايةً عن المشركين مِنْ قوم إبراهيمَ، الذين كُبكبوا في الجحيم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ هو على سبيلِ الكنايةِ عن الإيقاعِ في المهلكة[6]، أي: أرادوا بقولهم أنَّهم وقعوا في مهلكةٍ لا يخلِّصهم منها شافعٌ ولا صديق؛ إذ علموا أنَّ الشُّفعاء

نفيُ الكافرين للشافعين وللصَّديق يوم القيامة نفيٌ لأيِّ نفعٍ أو نجاةٍ من النّار

(1) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 20/ 284.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (حمم).
(3) الخليل، العين: (حم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمّ).
(6) الطّيبي، فتوح الغيب: 11/ 385.

والأصدقاء لا ينفعونهم، ولا يدفعون عنهم، فقصدوا بنفيهم نفيَ ما يتعلَّق بهم من النَّفع؛ لأنَّ ما لا ينفع: حكمُه حكمُ المعدوم[1]، فالمنفيُّ هنا ليس نفسَ الشّافع والصَّديق، بل المنفيُّ نفْعُهم[2]، أو الكنايةُ عن عداوة ما كانوا يعدّونهم شفعاءَ وأصدقاءَ، على أنَّ عدمَهما كنايةٌ عن عداوتِهما، كما أنَّ عدمَ المحبَّةِ في مثلِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: 205] كنايةٌ عن البُغضِ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّديق والصّاحب:

الصَّديقُ من الصَّداقة، وهي مُشْتَقَّةٌ مِنَ الصِّدْقِ في المَوَدَّةِ، فالصَّديقُ؛ لأنَّه صَدَقَهُ النَّصيحةَ والمودَّة[4]، والصَّديقُ: الخَليلُ، وهو الحَبيبُ المُصادِقُ لكَ[5]، وهو الذي ساوى باطنه ظاهره في إخلاصِ المودَّة[6]، وأمّا الصّاحبُ؛ فمِن صَحَبَ، وتدلُّ على المقارنة والمقاربة، والصّاحِبُ: المُعاشر[7]، والصّاحبُ: الملازمُ مكانًا أو زمانًا، وقيل: لا فرقَ بين أنْ تكونَ المصاحبةُ بالبدن - وهو الأصلُ والأكثر - وبالعناية والهمَّة[8]، إذًا: الصّديقُ ينبئُ عن صدقِ المودَّة والمحبَّة، وإنْ لم يكن ملازمًا لك، بينما الصّاحبُ ينبئُ عن الملازمةِ والمقاربة، فهو المعاشرُ لك، وإنْ لم يكنْ صادقًا في مودَّته، والسّياقُ في الآية يناسبه لفظُ الصَّديق؛ إذ الكفّارُ أحوجُ ما يكونون إلى مَن يصدقُهم المودَّة في تلك الحالِ التي هم عليها، ولكنَّهم لا يجدونه.

الصَّديقُ الصّادق في مودَّتِهِ أحوجُ ما يكونُ أهلُ النّار بحاجةٍ إليه ولا يجدونه

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 322.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 271.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 253.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة، والزّبيدي، تاج العروس: (صدق).
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 656.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صحب).
(8) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صحب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»